قلعة حلب الشهباء

للاستاذ عبد القادر عفي الحفار
مدير مجلة الجهاد بحلب

(راجع صور القلعة بالصفحات ٧٧٠ و ٧٧٢ و ٧٧٣)

إن من أعظم الدلائل على مجد الأمم السالفة ورقيها وتقدمها في العلوم والفنون ما تركته من الآثار الشاهدة بحضارتها ومدنيتها .

فمن تلك : الاهرامات فى مصر العزيزة ، وأبوالهول ، وقلعة حلب ، وقلعة مالك بن رحبة بن طوق بقرب الفرات ، وقلعة بعلبك ، وآثار تدمر ، وغيرها من الآثار الخالدة التى تدل على حضارة بناتها ومجدهم .

وأريد أن أذكر لقراء « المعرفة » الكرام كلمة عن قلعة حلب وما كانت عليه من المجد وما تعاقب عليها من حكام وملوك ، وما نقش عليها من آثار وخطوط ، كانت ولا تزال محل بحث المؤرخين والسواح من الأجانب والاثريين ، خصوصا قاعتها المشهورة « بقاعة الحمراء » ونافذتها ذات الشبك المعدني البراق العجيب ، والذى قيل إن بعض الاثريين الالمان هو الذى احتال وسرق قسما منه فشوه الشبك .

حلب وقلعتها

معلوم عند القراء الكرام أن من أمهات مدن الشام مدينة « حلب الشهباء » وقد قيل إنها سميت بذلك لأن سيدنا ابراهيم الخليل عليه السلام كان يعتكف فيها ، ثم كان يحلب بقرته « الشهباء » ، وكان يطعم الناس فيتنادوا : ابراهيم حلب الشهباء .

مساحتها ٨٢ الف كيلومتر مربعا ، ويحدها شمالا البلاد التركية ، وشرقا حدود العراق ،

وغربا البحر المتوسط ، وجنوبا حكومة الشام وجنوب غربيها بلاد العلويين . وتقوس سكانها ١٥٧ الف نسمة وتقع فى شمال سوريا .

فتحت حلب فى خلافة سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه سنة ١٥ هجرية من ايام الخريف الموافقة سنة ٦٣٣ ميلادية على يد سيدنا خالد بن الوليد وابى عبيدة الجراح ، وكان فتحها صلحاً ، وفتح قلعتها عنوة .

فلما فتح ابوعبيدة وخالد بن الوليد قنسرين ـ واختطا فيها مسجداً ـ بلغ ذلك رئيسى حلب « يوقنا و يوحنا » وكانا يحكمان حلب ، ومقر حكمها فى القلعة . ولما قدمت جيوش المسلمين اختلف الأخوان : فيوقنا يقول بصلح المسلمين ، و يوحنا يقول بحربهم ، فخرج الأخير لحربهم غير أن أهالى حلب خرجوا من جهة ثانية وصالحوا المسلمين واستأمنوهم فأمنوهم ، فرجعوا الى حلب . و بلغ أمرهم يوقنا فأخذ فى قتلهم ، ولما عارضه أخوه قتله . ولكن المسلمين داهموه بجيوشهم فتركهم والتجأ الى القلعة الحصينة ، ثم فتحها المسلمون بعد عناء كبير . وهذا مجمل القول فى فتح حلب مع قلعتها باختصار .

الكلام على قلعة حلب

كانت قلعة حلب عديمة النظير فى الحصانة والمنعة والجمال ، وكانت تعد من عجائب الدنيا ، وأول من بناها (سلكيس نيكادور) أحد ملوك الرومانيين بعد جلوسه بـ ٢١ سنة ، وكان ذلك سنة ٣١٢ قبل المسيح .

و يسمى هذا الرجل فى التواريخ بسلتوس ، وهو الذى جدد بناء حلب بعد الزلزال الذى هدمها ، ثم بنى القلعة على جبل مشرف على المدينة بل فى وسطها ، ثم فرش جميع أطراف الجبل بالرخام وأحاطه بخندق ، وسلط عليه نهراً عظيما اذا فتح ماؤه على الخندق جعله لجة تمنع الوصول الى القلعة والاقتراب منها .

و يوصل القلعة بالبلد جسر مركب على قواعد حجرية متينة ، وجعل فى آخره من جهة القلعة باب حديدى عظيم ، والجسر له مرقاة سهلة الصعود حتى إن الحيوانات تصعدها بلا مشقة وفوق الباب الأول سور عظيم بنى من قطع الصخر الغليظة ، وقد كتب عليها بالخط العربى الكوفى . « أمر بعمله مولانا الملك الظاهر غازى بن يوسف سنة ٦٠٨ »

ثم تمر من هذا الباب وتمشى صعداً مسافة ٥٠ ذراعا على درج مكشوف مسطح مرفوع على قناطر معقودة فوق الخندق ، حتى تصل الباب الثانى الذى رسم فوق قنطرته صورة أفعى عظيمة ذات رأسين ، أما عرض الباب فثلاث أذرع وبضع قراريط ، وارتفاعه خمس أذرع ، وقد كتب عليه :

« أمر بعمارته بعد ثورة السلطان الأعظم الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين خليل محيي الدولة الشريفة العباسية ، ناصر الملة المحمدية عز نصره »

ومكتوب على الطرف الآخر : ـ

« جددت ـ بعد إهمال عمارتها وإشرافها على الدثور ـ فى أيام مولانا السلطان الملك الظاهر أبى سعيد برقوق ، أيد الله أنصاره ، بحوزة سريدار دولته محمد بن يوسف أرسلاك نائب السلطان سنة ٧٨٦ »

ومكتوب على جدار متجه الى الجنوب بجانب الباب « بالأشارة العلية المولوية الأميرية الشمسية ، قراسنقر الجوكندار المنصورى الأشرفى كافل المملكة الحلبية أعزالله نصره » ثم تدخل الى الباب الثالث فتراه يشتمل على أربعة أواوين عرض كل إيوان ثلاثة أمتار ، وقد نقش على تجفة الباب حفرا على الصخر صورة أسدين يتناطحان . ثم تمر فى مدخل فخم فيه عدة أواوين وأربع منعطفات ، فى آخرها مزار الخضر عليه السلام ، وهو دكة مرتفعة علق بجانبها قطعة وكتب عليها بالأفرنسية : مار جرجس الخيال : ـ (Le chevalier Mare-George)

ثم تصل من الممر إلى الباب الرابع وعلى كل من عضادتيه صورة أسد : الأول يضحك ، والثانى يبكى . ولهذا الباب غلق من حديد كبقية الأبواب قد كتب عليه : ـ

« أمر بعمله مولانا السلطان الظاهر غازى بن يوسف سنة ٦٠٦ »

ثم تسير فى ممر مستقيم مشتمل على عدة أواوين ومخادع عظيمة منها طاحونان عظيمان للدقيق ، ومحل لجلوس الجند . ثم تخرج إلى ساحة القلعة الواسعة الأرجاء المشتملة على كثير من الآثار والقصور والدور ذات التاريخ ، فمن ذلك مدخل الجامع الكبير فى القلعة كتب عليه :ـ

« أمر بعمارته الملك الصالح نور الدين أبو الفتح اسماعيل بن محمود زنكى بك أقسنقر ناصر أمير المؤمنين بتولى العبد شار بخت سنة ٥٧٥ »

ولو أردت استقصاء جميع الأماكن التى زرتها لقلعة حلب فى تلك العجالة لاحتجت إلى جزء خاص من أجزاء «المعرفة» الغراء ، ولكننى أرسل هذه الكلمة وآمل أن أعود إلى هذا الموضوع فى وقت آخر ـ إذا تكرم سيدى الاستاذ صاحب «المعرفة» فأفسح لى مجالا لاتمام وصف هذه الزيارة لقلعة حلب التى أصبحت زيارتها تحتاج إلى استئذان الحكومة المنتدبة والاستحصال على وثيقة خطية ، الى ما يتبع ذلك من عناء ؟

حلب فى ٣٠ جمادى الأولى

مدير الجهاد

عبد القادر حقى الحفار